الرمال العابرة

تحت شجرة صغيرة صحراوية يابسة ربض في ظلالها بجوار الطريـق المعبـد يحرك رأسه تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار وقد سال اللعاب مـن فمـه المفتـوح وعظامه تكاد تبرز من جلده... لم يكن أمامه تحت ذاك القيض أي بـوادر للحيـاة سوى عشة متآكلة يرقد فيها بضع من الأطفال العراة وعجوز عمياء... الـشمس تقترب من الظهيرة وتكاد تصهر تحتها كل شيء.. وسكينة مميتة تلف المكان... لكن الطريق مازال خالياً... كان عليه أن ينتظر (الباص).. تلك الحافلة الـتي أغاثـت سكان الطريق بما تلقيه من نوافذها من أقراص (الروتي) الأبيض اليابس غذاء سكان المدن... تثائب بملل ثم نظر بألم نحو الطريق المقبل من (الحديدة) وطرح رأسه فـوق يديه... كان منظر الطريق قطعة من جهنم والوهج الحار يتصاعد منها والـسراب الشفاف يتناثر فوق الطريق الطويل الممتد كخط مستقيم وأعمدة التلغـراف قـد شقتها الشمس وأسلاكها تأثرت من شدة الرياح العاتية...

كان أكثر ما يسليه منظر الرمال التي تعبر الطريق مسرعة كأنها هاربة مـن وهج الحرارة التي تأتي من جهة الساحل... وكم كان يضايقه إذا ما قررت الرمـال العبور من مكانه فقد كان عليه أن يقترب من العشة ليحتمي بها ويكلفـه ذلـك حجراً تقذف على ظهره من صبي أو من الفتاة الشرسة...

وعبرت الرمال وهو في استرخائه المميت في مكانه واضطر بملل أن يقتـرب من العشة بهدوء ليحتمي بها.. لم يكن يستطيع تفسير العداوة التي يكنها له سـكان العشة... كانوا جميعاً أغراب... وجياع أيضاً أضطرهم الجوع جميعاً للجوء بجـوار الطريق العام..

لقد ترك أسياده في عشتهم يموتون جياعاً في أعماق (تهامـة) واسـتطاع أن يقطع القفار ويهيم نحو لا يدري أين.. ولما استقر به المقام بجوار الطريق العام عثـر صدفة على قرص (روتي) أبيض.. أكل نصفه ودفن نصفه الآخر بمنخاره.. لكنه في اليوم التالي سمع هدير سيارة كبيرة حمراء هي (الباص) ففر مسرعاً بعيداً فلم يكن قد رأى من قبل مثل هذا الوحش الصاخب لكنه لاحظ تسارع سكان الطريق الجيـاع يهرعون نحو (الباص) ويلتقطون من بعده بعض أقراص (الروتي) الأبـيض فوقـف وشده المنظر... لقد رأى أناساً لكنهم ليسوا من (أسياده)... وفجأة قـذف مـن النافذة أحد أقراص الروتي الأبيض اليابس فاصطدم بالطريق المعبد وبـشده انـدفع القرص نحوه نتيجة سرعة (الباص) وبلمح البرق اندفع دون شعور وقبض بفمه على القرص وانهالت عليه بعض الحجارة من الصبية العراة والرجال العجزة ومن نـساء نظر فيهن التوحش فترك القرص وفر يعوي بألم بعيداً...

كان ذلك أول درس تعلم منه البعد عن الناس وأخذ مكان لائق بـالخطف السريع للقرص والفرار به قبل أن يتمكن أحد الجياع من اللحاق به وقذفه..

طابت له الحياة نوعاً ما فكان باستطاعته في بعض الأحيان أن يصطاد قرصـاً في اليوم الواحد وإذا لم يحالفه الحظ كان يوفر لنفسه نصف قرص من المكبوس تحت التراب...

لكن الحالة ساءت عندما حل في العشة الهادئة المجاورة لـه عجـوز عميـاء وشرذمة من الأطفال العرايا... كانوا يطاردونه دائماً قبل مرور (الباص) ويقذفونـه بأحجام متفرقة من الحجارة كانت نتائجها تعيقه بعد ذلك عن الخطف الـسريع... وقل محصوله فلم يعد يستطيع كبس أي قرص احتياطي. بل كان يعد رابحاً إذا قدر

له أن يصطاد قرصاً في خلال ثلاثة أيام.. لذلك قرر الابتعاد نحـو شـجرة يابـسة صحراوية صغيرة بعيدة عن الكوخ المحتل من قبل العجوز العمياء وشرذمتها...

وانتهت الرمال في عبورها للطريق هاربة نحـو الجبـال... جبـال الهـضبة الخضراء... وانسحب بهدوء نحو المكان وبحذر شديد عاد وطرح رأسه فوق يديـه ونظر نحو الطريق الآتي من (الحديدة)...

لقد كان موعد الباص فالوقت ظهراً وأصبح ظله تحته تمامـاً فقـد لاحـظ بالممارسة أن السيارات تنقطع عن المرور خلال الظهر ما عـدى ذلـك (البـاص) الكبير... وفجأة من خلال سراب الطريق لمح شبحاً أحمر يمخر عبـاب الـسراب المبعثر ويتمايل كأجزاء منسقة من خلال وهج الحرارة...

وخرجت فتاة من الكوخ ثم عادت وخرجت مع العجوز العمياء وشـرذمة الأطفال العراة وتسارعت جحافل مبعثرة تهرول نحو الطريق وتلقـط مـن الأرض أقراص (الروتي) الطائرة فوق الطريق وعلى جانبيه...

استقام وقد ارتكزت أذناه.. ووقفت العجوز العمياء وبجوارهـا الـشرذمة العارية... وهون (الباص) سرعته ثم وقف بجانب العجوز ونزل منه (قاطع التذاكر) وقد أمسك بيده طاقيته المزركشة المتصببة عرقاً وقد امتلئت نقوداً متفرقة ثم سلمها العجوز.. وعاد فقفل الباب .. لكن بعض المسافرين من هزهم المنظـر لأول مـرة كانوا يريدون مزيداً من التبرع والإحسان لذلك فقد فتح الباب مرة أخرى...

انتظر وقد تألم وغضب لهذا الإجراء الغير عادي... وقرصه الجوع فـاقترب من الجهة الأخرى من (الباص) لكي لا تراه الشرذمة... وتلفت نحو النوافذ لكـن المسافرين كانوا ينظرون من الجانب الآخر نحو العجوز وشرذمتها...

واستاء لذلك ولعدم اهتمامهم به... وعاد بعض المسافرين إلى مقاعـدهم في الجانب الآخر... حاول استرعاء انتباهم فابتعد قليلاً لكي يـروه... ولمحـه أحـد المسافرين فنظر إليه وهز ذنبه مستعطفاً وبدون إرادة نبح بلطـف ثم ذعـر كأنـه ارتكب خطأ فائلاً... وما هي إلا برهة حتى انهالت عليه حجرة قذفها صبي عـاري الجسد باغته من الخلف... فارتبك وعلا صوته بألم دون إرادة فانهالت عليه قذيفـة أخرى في عموده الفقري... وحاصرته الشرذمة بينما تحرك (الباص) ورمى الرجـل بقرص من (الروتي) الأبيض... ولشدة ارتباكه حسبه حجراً مقذوفاً لكن رائحتـه أعادت له الأمل فخطفه بفمه بينما اشتد عليه الحصار ولم يعد أمامه منفـذ للعبـور سوى من تحت (الباص) فمرق لكن (الباص) كان قد تحرك... وما هـي إلا ثانيـة حتى كان جثة مهودة ملطخة بالدماء واختلط الدم بقرص الروتي وبجثته الممزقـة... وعبرت الرمال مسرعة من فوق جثته نحو الجبال... جبال الهضبة الخضراء ...